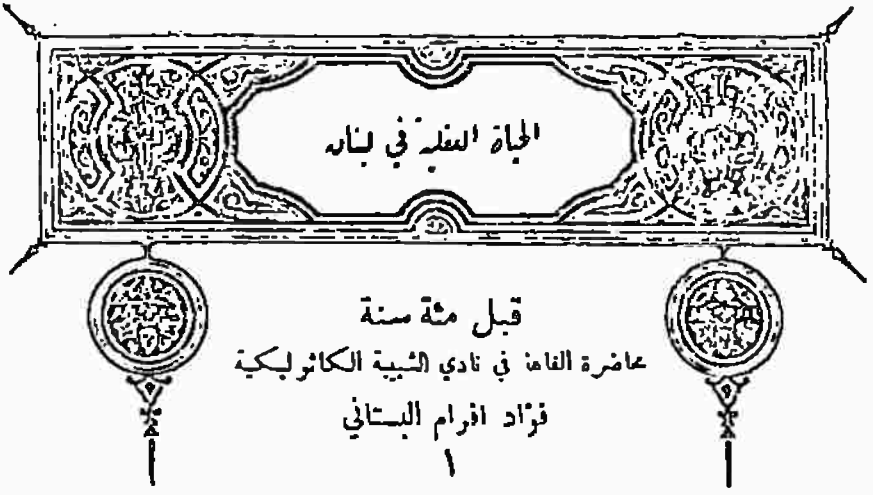

الحياة العقلية في لبنان

قبل مئة سنة

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية

فؤاد افرام البستاني

١

لكلّ أمة حياتان :

حياةٌ خارجية ماديّة ، تُثيرها المطامع والاهواء ، ويقودها حبّ الفتح والاستيلاء الى المجازر والمعارك ، فيُبهر ابصارها لمعان الأسنّة وبريقُ السيوف ، وتُخيّم فوقها غمائم البارود وعصائب الكواسر ، ويحملُ اصداءَ جلبتها الى اطراف الأفق قرعُ الطبول وقصفُ المدافع . ثم تعود ، بعد ان ملأت الفضاء ضجيجاً ، نشوى بخمرة الانتصار ، فتبني صروح عظمتها شاهقةً ، توطّدها على احقاف الجماجم ، وتشيدُها بدماء الأوردة .

وحياةٌ ثانية ، داخلية روحية ، تُحييها الرغبة في تهذيب النفس ، ويغذّيها الدرس واجهاد الفكر ؛ فتمثلُ منفردةً ساكنة ، تحفظها الطمأنينة والسلام ، وتحفّها الهيبة والوقار . تبسط ايديها المحرّرة على خفايا الأدمغة فتنزع حُجبها ، وتمدّ اصابعها المرنة اللطيفة الى حنايا الضلوع فتكتشف كنوزها . ثم تعود ، ولم يشعر بها احد ، فتبني اكواخ تواضعها ضئيلةً حقيرة ، توطّدها على منتوجات العقول ، وتشيدها بعواطف القلوب .

وبعد حين يشعرُ ارباب الحياة الصخّابة بوجود الحياة الهادئة . فيهزأ بها البعض ، ويحتقرون اكواخها ، ويترفعون حتى عن تقويضها . ويلهو بها البعض الآخر ، فيستخدم ابناءها في اساليب سروره وطربه ، يُذيبون ادمغتهم في سبيل تفكيهه ، ويمنّ عليهم بان يحمل اكواخهم في ظلّ صرحه الشامخ .

ولكن ما هو أن تهبّ عواصف الزمان ، وتثور اعاصير الدهر ، فتصدم تلك

القصور المتمرّدة ، وتدفع ريحها السموم صافرةً بين الجماجم ، حتى تُزلزلَ تلك القباب ، وتقوّضَ تلك الاركان. والاكواخ باقية في تواضعها مطمئنة في سكونها.

ثم تمرّ القرون ، واذا بهوميروس يدوّخ من البلاد ما لم يحلُمْ بهِ الاسكندر الكبير ، واذا بفرجيل ينشر نفوذه على ولايات لم ينتشرْ عليها النسر الروماني ، واذا بالمتنبي يفتح ثغورًا لم يصل اليها سيف الدولة ، واذا بابيات كورنيل تدوّي في آفاقٍ لم تسمع قصف مدافع نابوليون ، واذا بشكسبير يحتلّ من المناطق ما لم يبلُغ اليه اسطولُ ملكة البحار.

واذا بالتاريخ ، ذاك الحاكم العادل ، يردّد ببرودته المعهودة :

مضى ذكرُ الملوك بكل عصرٍ وذكرُ السوقة العلماء باقِ

هذه الحياة العقلية ، الهادئة الساكنة ، هي ما نودّ درسه في لبنان قبل مئة سنة ، اي في الثلث الاول من القرن التاسع عشر.

في عهدٍ كان اللبناني لا يهتمّ بسوى صقل يَطقانه ، وتنظيف بندقيته ، وتنضيد طبنجاته ، منتظرًا دعوة اميره ، كي يسير الى حيث لا يعلم ، فيحارب من لا يعرف. في ذاك العهد المضطرب ، الذي ملأه الأمير بشير جلبةً وضوضاء ، هل كان من وجود للحياة العقلية في لبنان ؟

اذا القيتم نظرة على قمم جبالنا ، من الشمال الى الجنوب ، ومن البحر الى البقاع ، ترونها مزدانةً ببنايات بسيطة الظاهر تعلوها قبب الأجراس مرتفعةً ، تبدو في النهار معالم لأبصار المسافرين فتدعوهم الى الاطمئنان والامل بالراحة ، وتقرع في المساء والصباح فتنبه السكان الى رفع الدعاء نحو الكائن الأعلى.

في تلك البنايات التي شيدت بعرق الرهبان حينًا وبدمائهم احيانًا ، حُفظ ، قرنًا فقرنًا ، مصباح الحياة العقلية. هبّت عليه عواصف الهمجية ، واكتنفه ضباب الجهل ، فارتجف طويلًا ، ولكنه لم ينطفئ. هو نورٌ ضئيل لا يُذكر اذا قسناه بانوار علومنا اليوم ، ولكنه كافٍ ليستأنس بهِ مؤرخ الآداب ، ويؤمل انه سوف يسطع ، اذا وجد مجالًا للسطوع. وهكذا كان ! فان تلك الأديرة لم تخلُ عهدًا من حملة العلم ، ونَشَرة المعارف :

جبرائيل القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر.

الصهيوني ، والحصروني ، والرزّي في اواخر القرن السادس عشر .
الحاقلاني ، والباني ، والدويهي الكبير في القرن السابع عشر .
والسماعنة ، وفرحات في القرن الثامن عشر .

حملوا علوم الشرق الى بلاد الغرب ، وعادوا ، بانفسهم ، او بتلامذتهم ، او بآثارهم ، الى وطنهم ؛ فمهّدوا السبيل لنفحة الغرب الباعثة فينا روح النهضة في اوائل القرن الماضي .

هذا اهمّ ما يُذكر ، عند الكلام عن سُبّاق نهضتنا الحالية ؛ وهذا ما دفع خيرالله خيرالله في كتابه « *La Syrie* » الى الاقرار عالياً بفضل الاكليروس الماروني ، فقال ما تعريبه :

« نحن اليوم في طور انتقال تسود فيه الفوضى . ولكنّ المستقبل كفيلٌ بان يستخلص الأسباب من النتائج . عند ذلك تعرف سورية العصرية كلّ ما هي مدينةٌ بهِ للبنان ، ويعرفُ لبنان كلّ ما هو مدينٌ بهِ للموارنة ، ويعرف الموارنة كلّ ما هم مدينون بهِ لاكليروسهم .»[1]

* * *

اما في اول القرن التاسع عشر ، فتبدو الحياة العقلية في ثلاثة مظاهر : المدارس ، والمطابع ، ومحافل الادباء .

وها نحن نجول في لبنان ، اذا شئتم ، في العقد الثالث من القرن الماضي ، فنتسلّق قممهُ ، ونزور مدارسه ، ونفتّش مطابعه ، ونتعرّف الى مؤلّفيه ؛ ثم ننزل ضيوفاً كراماً على امير لبنان في بيت الدين ، فنشهدُ حفلات من تنده من الشعراء والكتّاب . ونعود الى مقرّنا ، بعد ان نسمع شيئاً من اناشيد الشعر العامي . وفّقنا الله في الذهاب والإياب :

اول ما يلفت نظرنا من معاقل العلم مدرسة عين ورقة الشهيرة ، التي انشأها البطريرك يوسف اسطفان على عهد اسقفيّته . وظلّت ديراً بسيطاً يقيم فيه بعض الراهبات ، حتى انتبه البطريرك يوسف التيان ، احد تلامذة مدرسة الموارنة في رومية ، لحاجة البلاد الى معهد علمي كبير ، فأخرج الراهبات ،

1) K. T. Khairallah : *La Syrie*, Paris, 1912 p. 38-39

وحوّل الدير ، سنة ١٧٨٩ ، الى مدرسة كبيرة على مثال مدرسة رومية . وها نحن نراها في زيارتنا ، آهلةً بالتلامذة ، مرتّبة الصفوف ، تدرّس فيها اللغات السريانية ، والايطالية ، واللاتينية ، والعربية بعلومها المختلفة من صرف ونحو وبيان وعروض ، مع الفصاحة والمنطق والفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ، والحق القانوني ، والشريعة المدنية . ونرى بين هؤلاء التلامذة المتعدّدين كثيراً ممن سوف يُصبحون اربابَ اللغة بعد قليل ، فيحملون لواء النهضة عالياً ، ويملأون المكاتب بتآليفهم النفيسة ، كأحمد فارس الشدياق ، والكونت رشيد الدحداح ، والمعلّم بطرس البستاني.

وعليه يظهر فضل تلك المدرسة « التي يسوغ لنا ان نقول بحقّ ، مع احد خرّيجيها المعلم بطرس البستاني[1] ، إنها امّ المدارس الوطنية في هذه البلاد . »

ومن عين ورقة نسير الى باقي المدارس المارونية ، فنزور مدرسة كفرحي المنشأة سنة ١٨١٢ ، ومدرسة الرومية المنشأة سنة ١٨١٨ ، ومدرسة صربا المنشأة سنة ١٨٢٨ ، وكثيراً غيرها من المدارس الأبرشية والاناطش المنتشرة في اهدن ، وحوقا ، وبقرقاشه ، وجبيل ، وعجلتون ، ووادي شحرور ، ودير القمر ، وزحله . ولو تأخرت زيارتنا قليلاً لأمكننا ان نزور مدرستين عامرتين هما مدرسة ريفون ، ومدرسة مار عبدا هرهريا ، وقد أُسّستا سنة ١٨٣١ .

هذا ولم يحتكر الموارنة انشاء المدارس ، فاننا نرى للروم الكاثوليك مدرسة شهيرة انشأها في عين تراز سنة ١٨١١ ، البطريرك اغابيوس مطر ، وغايته تهذيب ابناء طائفته بالعلوم الاكليريكية.

وكان بطريرك السريان الكاثوليك ، مخائيل جروه ، قد وضع أساس مدرسة الشرفة وجمع بها مكتبة مهمة ، لا يزال المنقّبون يكتشفون بعض نفائسها حتى اليوم.

واذا زرنا دير يزمّار للأرمن الكاثوليك ، ورأينا ان لهم فيه مدرسةً تُذكر ، انشأها البطريرك غريغوريوس الأول ، نرجعُ ونحن واثقون بأنّا قد عرفنا اشهر مدارس لبنان في الثلث الاول من القرن التاسع عشر.

---

١) المعلم بطرس البستاني : خطبة في آداب العرب ، (ص : ٣٦)

امّا المطابع فاقدم ما عُرف منها في لبنان مطبعة قزحيا القديمة التي دخلت بلادنا في اوائل القرن السابع عشر . وطُبع فيها كتاب المزامير ، على عمودين احدهما سرياني والثاني عربي بالحرف الكرشوني ، وذلك سنة ١٦١٠. ثم خربت تلك المطبعة ، فتضعضعت حروفها ، وخمدت حركتها نحو مائتي سنة. الى ان اهتم الاخ سيرافيم حوقا فاستحضر من اوربة ادوات جديدة ، وبنى قبراً خاصاً في الدير المذكور ، رتّب فيه جميع الآلات ، وطبع اول كتاب فيها سنة ١٨٠٨. وقد بلغت مطبوعاتها حتى زيارتنا نحو الثمانية كتب كلها في الدينيات.

وهناك مطبعة ثانية تقدّمت زمن تجديد مطبعة قزحيا ، وهي مطبعة دير يوحنّا الصايغ في الشوير التي انشأها عبدالله زاخر في الثلث الاول من القرن الثامن عشر ، وحفر حروفها على مثال الحروف العربية في مطابع رومية ، وسبكها بيده ، وقد ساعده على ذلك انه كان يتعاطى في حداثته فنّ الصياغة ، كما ذكر الرحّالة الفرنسوي ڤولني (Volney). واصدر اول كتاب منها سنة ١٧٣٩ ، وهو كتاب ميزان الزمان للأب نيرنبرج اليسوعي. ولم تأتِ السنة ١٨٢٨ ، حتى كانت مطبوعاتها قد بلغت الاربعة والعشرين كتاباً كلها في الدينيات.

وقد كان امكننا زيارة مطبعة عربية في بيروت ، وهي مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس التي أنشئت سنة ١٧٥١ ، لو لم تكن قد أهمل امرها فظلّت نحو المئة سنة لا تطبع شيئاً.

* * *

كان يلتئم حول هذه الدوائر الادبية من مطابع ومدارس ، او بالقرب منها في الاديرة او في زوايا الجوامع ، فريقٌ ممن راقت لهم حياة العلم والتعليم ، فخصّصوا القسم الاكبر من وقتهم للتبحّر ، وتدوين ما يعلق بأذكرتهم من الحوادث ، والمذاكرة مع من يجتمع اليهم من الطلّاب والمريدين.

وهكذا فاننا نرى في لبنان بضعة عشر شخصاً من المشتغلين بالحياة العقلية تركوا لنا بعض آثار لها قيمة تُذكر ، لاسيما اذا ذكرنا ان مؤلفيها كتبوها في زمنٍ ساد الجهل فيه على معظم الاقطار العربية.

من هؤلاء المشتغلين بالعلم مؤرخون نثق نحن مدينون لهم بما نعرفه عن

تاريخ بلادنا، كالقس حنانيا المنيّر من الرهبانية الحناوية الشويرية، والمعلّم نقولا الترك. للاول تاريخان مشهوران: احدهما مدني اسمه «الدرّ المرصوف في حوادث الشوف» ذكر فيه ما حدث في لبنان من السنة ١٦٩٧ الى السنة ١٨٠٧، فغدا مورداً سائغاً استقى منهُ الامير حيدر في تاريخه المعروف، والشيخ طنّوس الشدياق في «اخبار اعيانه». والآخر ديني ذكر فيه حوادث رهبانيته من نصف القرن الثامن عشر الى السنة ١٨٠٥. وفي المكتبة الشرقية نسخة من التاريخين.

اما نقولا الترك فوُلد في دير القمر سنة ١٧٦٣، وخدم الامير بشير، ناظماً في مدحه ومدح اعوانه القصائد العديدة مما سنُشير اليه. وقد اهتمّ بالتاريخ ليس اللبناني فحسب، بل العامّ ايضاً، فترك فيه كتابين جليلين اولهما تاريخ نابوليون، من وفاة لويس السادس عشر الى السنة ١٨٢١، وقد درس هذا الكتاب المستشرق ديغرانج (Desgranges) فطبع نصفه الاول في باريس سنة ١٨٣٩ وترجمه الى الفرنساوية، ولا يزال النصف الثاني مخطوطاً. وثانيهما تاريخ الجزّار، منهُ نسخة في المكتبة الشرقية. ويمتاز نقولا الترك بجملته السهلة الصحيحة، القليلة التكلّف. ويرى المرحوم الاب شيخو ان لنقولا المذكور تاريخين آخرين لم يذكر اسم مؤلفهما: الاول طبع في باريس سنة ١٨٠٧ بعنوان «مجموع حوادث الحرب الواقع بين الفرنسوية والنساوية في اواخر سنة ١٨٠٥ الموافقة لها سنة ١٢٢٠ لتاريخ الهجرة.» والثاني لا يزال مخطوطاً منهُ نسخة في مكتبة باريس العمومية اسمه «نزهة الزمان في حوادث لبنان» ينتهي بحوادث سنة ١٧٩٠[1]

اضيفوا الى هؤلاء بعض المشتغلين بالعلوم والآداب من الفقهاء والاساتذة الذين كانوا يجمعون حولهم من طلّابهم حلقات، يتذاكرون فيها ويتناظرون، فيخلقون محافل ادبية صغيرة؛ كالشيخ محمد الحوت الفقيه البيروتي الذي ترك كتاباً اسمه «اسنى المطالب في الحديث»، والخوري ارسانيوس الفاخوري الذي صار في ما بعد قاضياً للنصارى، وترك التآليف العديدة.

(لها بقية)

١) الاب شيخو: تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج ١، ص: ٣٦